

1 - الأسطورة

إن بعد الشاعر المعاصر عن واقع الحياة التي ينشدها ، و عدم الاطمئنان لها ، جعله في بحث دائم عن عالم جديد غير الذي يعيشه ، فعاد إلى الأساطير لأنها ليست جزءا من عالمه ، ليعبر بها عن ذاته و مكوناتها .

فما هي الأسطورة ؟ و ما دواعي توظيفها في الشعر العربي المعاصر ؟ و هل حظيت باهتمام الشاعر محمود درويش ؟

" الأسطورة " مفرد جمعه أساطير ، وهي حكاية تعتمد إليها المخلية الشعبية البدائية إخراجا لدوافع داخلية ، و هي محاولة لفهم الكون بظواهره المختلفة و المتعددة ، اعتمادا على الخيال ¹ .

فهي مرتبطة ببدائية الإنسان الذي وجد نفسه ضعيفا أمام قوى الطبيعة فراح يعبدها و يكسبها هالة من القدسية و التأليه ، فأصبحت بذلك أحداثها خوارق ، و البشر الموجودون فيها فوق مستوى البشر العاديين ² .

و من هنا فإن الأسطورة تقع خارج حدود الزمان و المكان ، و لا مؤلف لها ، لكن هذا لا يعني أنها تقع خارج حدود الواقع فهي حقيقة لا جدال فيها ، و هي قراءة أولى للتاريخ ، إذ تعتبر تعويضا عن غياب حقائق تاريخية في مراحل مبكرة ، و تعبيراً عن الوعي بالذات ، كما توضح بناء الحياة الاجتماعية و علاقة البشر بالآلهة ، خارج إطار الزمان و خارج حدود المكان ³ .

و يؤكد رولان بارت على واقعية الأسطورة رغم اعتمادها على الخيال إذ يعرفها بقوله : " الأسطورة تقليد يكشف عن واقع طبيعي تاريخي أو فلسفي من خلال المجاز أو الاستعارة و هذا هو معناها عند الإغريق " ⁴ ، و يوضح إلياد (eliade)

¹ ينظر : راجح العويبي : أنواع النثر الشعبي ، ص 19

² ينظر : عمر أحمد الربيعات : الأثر التوارثي في شعر محمود درويش ، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع ، الأردن ، 2009 ، ص

135

³ ينظر : قاسم عبده قاسم : بين التاريخ و الفلكلور : عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، ط2 ، 2001 ، ص 17

⁴ رمضان الصباغ : في نقد الشعر العربي المعاصر ، ص 346

بأن كلمة أسطورة " تعني عند المجتمعات البدائية قصة حقيقية مقدسة مثالية لها دلالتها " ¹ .

فالأسطورة وسيلة من وسائل استقراء التاريخ و التعبير عنه ، ومن خلال الشعر يمكن ربط اللحظة الحاضرة من الوجود بكثير من اللحظات التاريخية ² ، و توظيفها في الشعر يجعله متصلا بالخيال ، و هذا ما يؤكد إرنست كاسبرز ، يقول : " و هنا شكل آخر يتصل بالشعر اتصالا وثيقا ، فيما يبدو ، وذلك هو الأسطورة " ³ .

إن لجوء شعراء الحداثة إلى الأسطورة يكون في الغالب للتعبير عن قيم إنسانية أو تجارب ذاتية ، أو لأسباب سياسية ، فيتخذها الشاعر قناعا يعبر به عن أفكاره و معتقداته تجنباً للملاحقات ، و لعل أغلب شعراء الحداثة العرب في توظيفهم للأسطورة وقعوا تحت تأثير صاحب المنهج الأسطوري "ت.س. إليوت" ⁴ ، و هذا لا يعني أن لجوءهم للأسطورة هو ضرب من التقليد و المحاكاة ، إنما هناك دواع عديدة جعلتهم يقعون تحت هذا التأثير كالبحت عن حرية الإنسان المهدورة بعد طغيان المادية ، وكذا تطور الحياة في المدينة ، وما لازم هذا التطور من ضغوط نفسية و اجتماعية ⁵ .

إن توظيف الشاعر للأسطورة ، لم يكن فقط للهروب من واقعه إنما نجده يوظفها أيضا لكي يتوحد بالواقع و يشارك مجتمعه آلامه و أفراحه ، فالشاعر بيتس مثلا كان يشعر بالحاجة إلى التوحد مع وطنه إرلنده و مجتمعه فانحاز إلى الأساطير المستمدة من وطنه و أمته ⁶ .

و لكي ينجح الشاعر في توظيف الأسطورة لا بد أن يكون المتلقي عارفا بها ليتمكن الشاعر من إيصال خطابه الشعري له ⁷ .

¹ رمضان الصباغ : المرجع السابق ، ص 346

² ينظر : عمر أحمد الربيعات : الأثر التوارثي في شعر محمود درويش ، ص 138

³ رمضان الصباغ : المرجع السابق ، ص 347

⁴ ينظر : المرجع السابق ، ص 344

⁵ ينظر : عمر أحمد الربيعات ، المرجع السابق ، ص 139

⁶ ينظر : إحسان عباس : فن الشعر ، ص 132

⁷ ينظر : عبد العزيز إبراهيم : شعرية الحداثة ، ص 89

تعتبر الأسطورة واحدة من الأساليب التي استعملها الشعراء العرب المعاصرون للتعبير عن رؤاهم ، فأعطت أعمالهم بعدا جماليا ، وكان ذلك على يد الكثير من الشعراء المجددين ، الذين استلهموا بعض الأساطير القديمة كأسطورة أوديب و أبي الهول أو قصة بنيلوب ، كما ظهرت العديد من الشخصيات الأسطورية في أشعارهم كالسندباد و سيزيف و برمثيروس...¹ .

يقول الشاعر بدر شاكر السياب في قصيدته " أهواء " :

هي الفن أو نبعه المستطاب هي الحب ، حب الشقي الحزين
رأها تغني وراء القطيع كبنلوب تستمهل العاشقين²

و يقول الشاعر محمد سعيد الصكار :

أتظل تحفر في الجليد

دربا إلى هذه المدينة

و الدروب بلا انتهاء

"بنلوب" أتعبها المدى ، و البحر و الشوق الوحيد

ستموت من حزن عليك

ماذا ستفعل لو تحطمت السفينة³

إن الشاعر بدر شاكر السياب و محمد سعيد الصكار يوظفان الرمز الأسطوري "بنلوب" ، و هي امرأة تنتظر عودة زوجها أوديسيوس الذي غرق في البحر و أصبح يتحدى الخوارق ، لكن عودته طالت فباتت تستمهل العاشقين أملا في

¹ ينظر : عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط2 ، 1981 ، ص 202

² عبد العزيز إبراهيم : المرجع السابق ، ص 89

³ المرجع السابق ، ص 90

لقاء زوجها ، وتوظيف الشاعرين لهذا الرمز جاء على سبيل التشبيه ، دون أن يكون له دور في الكشف عن شيء جديد .

كما نجد بدر شاكر السياب يستعمل رمزا أسطوريا آخر في قصيدته "رحل النهار" ، و هو رمز السندباد ، يبدأ الشاعر قصيدته بقوله :

رحل النهار

ها إنه انطفأت ذبالته على أفق توهج دون نار

و جلست تنتظرين عودة سندباد من السفار

و البحر يصرخ من ورائك بالعواصف و الرعود¹

لكن الشاعر يوظف هذا الرمز الأسطوري لا على سبيل التشبيه إنما يعطيه بعدا آخر و دلالة أخرى ، فالسندباد رجل يركب في سفينته راحلا للبحث عن الطرائف فيتعرض لمواقف شاقة لا يخرج منها إلا بعد عناء و مغامرة ، ورحلاته تنتهي دائما بعودته مهما طال ، لكن الشاعر في هذه القصيدة جعل عودته غير ممكنة ، فالنهار قد رحل و حل الظلام ، والبحر يصرخ بالعواصف و الرعود ، فرحلته لا عودة منها ، يقول :

هو لن يعود

رحل النهار

فلترحلي ، هو لن يعود²

و محمود درويش هو واحد من شعراء الحداثة الذين وظفوا الأسطورة في أشعارهم و قد جعلها وسيلة لبث رؤاه ، والتعبير عن قضيته ، ومجتمعه وواقعه ، لذا نجد تنوع الرموز الأسطورية في أعماله ، كما أن أغلب الأساطير التي يوظفها

¹ عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر ، ص 208
² المرجع السابق ، ص 209

أساطير دينية و ذلك راجع إلى اهتمامه بالكتب الدينية اليهودية ، ولعل دافعه هو استخراج ما يدين الإسرائيليين من كتبهم المقدسة نفسها ¹ .

أ- الرموز الأسطورية :

تتوعد الرموز الأسطورية في شعر محمود درويش ، وكان يريد من خلالها الإشارة إلى الأوضاع في فلسطين و ما يعانيه شعبها ، فهو حين يسأل سميح القاسم عن "بنيلوب" بعد غيابه ست عشرة سنة عن فلسطين ، فإنما يرمز بها إلى فلسطين ذاتها لا امرأة حقيقية ، إذ يقول : " إذا جاءت السيدة سلم عليها ، وقل لها : سافر و سيعود قريبا ، و لا تسألها عن الجنين ! قريبا ؟ ست عشرة سنة كافية لتقبل "بنيلوب" ود خطابها و تلعن بحر إيجه " ² . وهو يشبه رحلة الفلسطينيين برحلة أوديسيوس ، يقول : " كل إقامة رحيل في الغربية في شروط هذه العلاقات ، وفي منفانا الجديد الذي هو فصل آخر من فصول البحث الفلسطيني الأوديسي ، عن صخرة يثبت فوقها من جديد " ³

و إذا بحثنا عن الرموز الأسطورية في أعمال محمود درويش ، فإننا نجد "العنقاء" أو " طائر الفينيق" من أكثر الرموز التي تتكرر ، و هو طائر خرافي ارتبط في الذاكرة الأسطورية بأنه طائر خالد متجدد لا يموت ، و إذا مات فإنه يبعث من رماده ⁴ ، فهو عند محمود درويش رمز للثورة الخالدة أو الوطن الخالد أو الشعب الخالد ، لذلك فهو يرى في شباب المقاومة الفلسطينية في بيروت صورة من طائر الفينيق ، " فهو لا يحرق نفسه إلا إذا شعر باقتراب موته ، وحينئذ يحرق نفسه ليقهر الموت و يتغلب عليه ، و يعيد إنتاج ذاته ، و كذلك شباب المقاومة الفلسطينية ، لم يعرضوا أنفسهم لنيران العدو ، وواجهوا أسلحته المتطورة إلا حين شعروا أن شعبهم معرض للاستئصال ، و قضيتهم معرضة للنسيان ، لذلك أحرقوا أنفسهم

¹ ينظر : عمر أحمد الربيعات : الأثر التوارثي في شعر محمود درويش ، ص 141

² تهاني شاكر : محمود درويش ناثر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2004 ، ص 154

³ نفسه ، ص 154

⁴ ينظر فوزي عيسى : تجليات الشعرية : قراءة في الشعر المعاصر ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1998 ، ص 29

بنيران عدوهم ليجددوا ولادة شعبهم و يحافظوا على قضيتهم " ¹ ، يقول محمود درويش في قصيدته "مصرع العنقاء" من ديوان (لماذا تركت الحصان وحيدا : 1995) :

في الأناشيد التي ننشدها

، ناي ،

و في الناي الذي يسكننا

، نار ،

و في النار التي نوقدها

عنقاء خضراء ²

فالناي هو رمز الحزن و الأسى ، غير أن هذا الحزن يتحول إلى نار متأججة لتتبعث منها عنقاء خضراء هي رمز الخلود . و في مقطع آخر يصور الشاعر صورة المرأة التي تريد أن تصبح كالعنقاء لتحترق فتولد من جديد ، ولعل الشاعر يريد أن يرمز بهذه المرأة إلى أرضه فلسطين ، يقول

قالت - لا أريد العودة الآن إلى

حصن أبي ... خذني إلى كرمك ، واجمعي

إلى أمك ، عطرنى بماء الحبق ، انثري

على أنية الفضة ، مشطني ، و أدخلني

إلى سجن اسمك ، اقتلني من الحب ،

تزوجني ، و زوجني التقاليد الزراعية ،

¹ تهاني شاكر : محمود درويش ناثر ، ص 156
² محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 357

دربني على الناي ، و احرقني لكي أولد

كالعنقاء من ناري و نارك !¹

غير أن مأساوية الوضع في فلسطين تطغى على هذه الرؤيا ، فالشاعر يصور في ختام القصيدة صورة العنقاء التي تسقط في يد الصياد دامية ، يقول :

كل شيء يشبه العنقاء

بيكي داميا

قبل أن يسقط في الماء

على مقربة من خيمة الصياد ...

ما نفع انتظاري و انتظارك ؟²

و يستعمل الشاعر رمز العنقاء في قصيدة " أيام الحب السبعة " - من نفس الديوان - ، ليحفز شعبه على التضحية و الثورة ، يقول :

يكفي مرورك بالألفاظ كي تجد

العنقاء صورتها فينا ، و كي تلد

الروح التي ولدت من روحها جسدا ...

لا بد من جسد للروح تحرقه

بنفسها و لها ، لا بد من جسد

لتظهر الروح ما أخفت من الأبد

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 360

² المصدر السابق ، ص 361

فلنحترق لا لشيء ، بل لنتحدا !¹

و نجد الشاعر يستعمل رمزا أسطوريا آخر ، وهو رمز السندباد ، إذ يشبه
حنين اللاجئ الفلسطيني بحنين السندباد في قصيدة المناديل ، من ديوان (عاشق من
فلسطين) يقول :

و بكى لصوت ماء حنين

في شراع السندباد²

و تتبعث الرؤيا في قصيدة " البئر " من خلال توظيف الرمز الأسطوري
"جلجامش" ، إذ يقول الشاعر :

... و رأيت أني قد سقطت

علي من سفر القوافل ، قرب أفعى ، لم

أجد أحدا لأكلمه سوى شبحي ، رمتي

الأرض خارج أرضها ، و اسمي يرن على خطاي

كحذوة الفرس : اقترب ... لأعود من هذا

الفراغ إليك يا جلجامش الأبدى في اسمك !..³

فالشاعر يستعمل رموزا هي: (السقوط و الأفعى و الشبح) لتعبر عن واقع
النكبة ، ثم تفتح الرؤيا باستعمال الرمز الأسطوري "جلجامش" رمز الخلود الأبدى،
ليعم الخصب و تولد الأرض من جديد⁴ . كما يستعمل رمزا أسطوريا آخر هو رمز

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 408

² محمود درويش : الديوان ، ص 127

³ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 337

⁴ ينظر : فوزي عيسى : تجليات الشعرية ، ص 27

"أنا" أو "عشتار" وهي إلهة الخصب و الحب عند الإغريق ، فيرجوها الشاعر للحضور في قصيدته "أطوار أنا" لتعود الحياة إلى الأرض :

لا تتأخري في العالم السفلي . عودي من هناك

إلى الطبيعة و الطباع يا أنا !

جفت مياه البئر بعدك ، جفت الأغوار

و الأنهار جفت بعد موتك . والدموع

تبخرت من جرة الفخار ، وانكسر الهواء

من الجفاف كقطعة الخشب ، انكسرنا كالسياح

على غيابك . جفت الرغبات فينا .¹

فالشاعر يريد مجيئها لأنه بعودتها تعود الحياة ، غير أنها تبتعد عن الأرض لترحل باسم آخر ، و هذا تأكيد على حالة اليأس في فلسطين و الواقع المنهار :

و أنا تخلق نفسها

من نفسها

ولنفسها

و تطير خلف مراكب الإغريق

في اسم آخر²

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 354

² المصدر السابق ، ص 356

و في قصيدة " في انتظار العائدين " من ديوان (عاشق من فلسطين: 1966)
يوظف الشاعر الرمز الأسطوري " ابن عوليس " و هو رمز الإنسان الذي ظل
صامدا في وطنه المحتل¹ ، يقول :

أكواخ أحبابي على صدر الرمال

و أنا مع الأمطار ساهر . .

و أنا ابن عوليس الذي أنتظر البريد من الشمال

ناداه بحار ، و لكن لم يسافر .

لجم المراكب ، و انتحى أعلى الجبال

- يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر

أنا لن أبيعك باللآلي

أنا لن أسافر ..

لن أسافر ..

لن أسافر!²

و في هذا المعنى - الصمود - يوظف الشاعر "أوديسيوس" الذي ظل تائها
في البحر بعد حرب طروادة مع اليونان ، يقول في قصيدة "أبي" من ديوان (عاشق
من فلسطين) :

-كان أوديس فارسا ..

كان في البيت أرغفة

¹ ينظر : سعدي أبو شاور : تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ،
2003 ، ص 325

² محمود درويش : الديوان ، ص 113

ونبيذ ، وأغطية

و خيول ، وأحذية

و أبي قال مرة

حين صلى على حجر :

غض طرفا على القمر

و احذر البحر .. و السفر ¹

فالأب في هذا المقطع رمز للإنسان الفلسطيني المتمسك بأرضه " صلى على حجر" لذا ينهى ابنه عن السفر حتى لا يضيع كما ضاع أوديسيوس ² .

هذا إضافة إلى العديد من الرموز الأسطورية التي تجتمع في شعر محمود درويش معبرة عن واقعه و معاناة شعبه ، مستشرفة رؤيا تقتحم تلك الأوضاع متطلعة إلى عالم جديد .

ب - الأساطير الدينية :

يكشف شعر محمود درويش عن قراءته المكثفة للكتب الدينية ، ففي شعره الكثير من الإشارات التي تدل على اهتمامه بالتقافة الدينية اهتماما واعيا ³ ، فنجد حضورا مكثفا لدلالات مستقاة من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم ، كالمسيح وموضوع صلبه ، ونوح مقرون بالطوفان ، وأيوب وهاجر ... ، وهي ذات صلة باهتماماته وقضاياها ⁴ ، يقول مثلا في مجموعته : " عاشق من فلسطين " :

يا نوح لا ترحل بنا

¹ محمود درويش : الديوان ، ص 145

² ينظر : سعيد جبر محمد أبو خضرة : تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش ، ص 171

³ ينظر : رجاء النقاش : محمود درويش شاعر الأرض الحثلة ، ص 211

⁴ ينظر : سعيد جبر محمد أبو خضرة ، المرجع السابق ، ص 163

إن الممات هنا سلامة

إننا جذور لا نعيش بغير أرض

ولتكن أرضي قيامة¹

فروح رمز للقبطان الذي يوحى إليه بالرحيل عن دياره ووطنه ، لكن الشاعر لا يريد الرحيل بل يريد أن يتشبث ويبقى فوق أرضه مهما كانت نتائج هذا البقاء² .

ويهتم محمود درويش بالكتب الدينية اليهودية على وجه الخصوص ، ليدين بها الإسرائيليين أنفسهم ، فنجده مثلا يتوقف عند واحد من أنبيائهم ، ويدعى "حقوق" الذي كان يقول :

" ويل لمن يبني مدينة بالدماء ، ويؤسس قرية بالإثم "³

واليهود اليوم يبنون مدينتهم بالدماء والإثم ، لذلك فمحمود درويش يرى بأن هذا النبي لو كان حيا ، لكان أشد عداوة لبني إسرائيل ، لذلك فهو يتمنى عودته ، يقول :

حقوق عد إلينا .. عد وبشر من جديد

وارو مأساة مدينة

فوق تاج الدم والعبيد

ووراء الدم نار ، وضغينة .⁴

¹ محمود درويش : الديوان ، ص 117

² ينظر : سعدي أبو شاور : تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر ، ص 326

³ رجاء النقاش : محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، ص 220

⁴ المرجع السابق ، ص 220

كذلك نجد الأسطورة الدينية تشكل جزءا مهما من شعر محمود درويش ، وهي ذات مرجعية توراتية ، فقد أراد الشاعر أن يبين الأساطير والمعتقدات التي عاد لها اليهود ، وبنوا عليها حقهم في أن دولة فلسطين دولتهم ، وأنها أرض الله لشعب الله الذي اختاره ، فكانت أهم هذه الأساطير أسطورة " أرض الميعاد " ، وتقوم على أن الله وعد بني إسرائيل بأرض فلسطين لهم ولأبنائهم من بعدهم¹ ، يقول الشاعر :

هنا أول الشعر والسخرية

هنا أول السلم الحجري المؤدي إلى الله والسجن والكلمة

هنا نستطيع انتظار البرابرة المؤمنين بجحش

توقف في أرضنا قبل ميلاد عيسى عليه السلام

وأسس دولته بعد ألفي سنة²

فالشاعر يسخر من الإسرائيليين الذين بنوا دولتهم على هذه الأسطورة ، فهم ينتظرون ذلك الذي أسس دولتهم قبل ميلاد عيسى عليه السلام ليأتي بعد ألفي سنة ، فيعيد تأسيسها من جديد .

كما وظف الشاعر الأسطورة التوراتية " شعب الله المختار " ، فهم يدعون أن الله قد اختار شعبهم - الإسرائيلي - ليكون القريب منه ، المحبب له³ ، لذلك نجده يخاطبهم بسخرية أيضا ، فيعتذر منهم ، ويعددهم بالرحيل قائلا :

نحن للنسيان . لن نبقى طويلا ها هنا

لن ندق الطبل ، لن نزعجكم ، لن تسمعوا أحلامنا

لن نطيل النوم في قريبتكم ، لن نقطف الورد من بستانكم

¹ ينظر : عمر أحمد الربيعات : الأثر التوراتي في شعر محمود درويش ، ص 160

² محمود درويش : الديوان ، ص 451

³ ينظر : عمر أحمد الربيعات : المرجع السابق ، ص 144

لن نصلي معكم ، لن نقلق الرب الذي يختاركم شعبا على صورته
نحن لن نترك في ساحتكم قطرة دم ،
وسنمضي قبل أن تستيقظوا من نومكم¹

ويتخذ الشاعر محمود درويش الأسطورة الدينية ملاذا للخلاص ، من واقع
اليأس الذي يعيشه ، استحضارا لمستقبل جديد ، فيقرر الصعود لـ " الجبال " على
عادة أنبياء بني إسرائيل ، الذين كانوا يطلبون الخلاص والمغفرة في ذلك المكان
فيستجاب لهم² ، يقول :

فسر للجبلجة

واصعد معي

لنعيد للروح المشرد أوله³

كما نجده يطالب بتغيير الواقع المأساوي الذي يعيشه الفلسطيني ، ولا سبيل
في رأيه إلى ذلك إلا ببعث نبي جديد في هذا الزمن ، على غرار الأنبياء القدامى
الذين كانوا يصعدون حفاة إلى الجبال والمرتفعات لطلب الخلاص ، يقول :

أطل على موكب الأنبياء القدامى

وهم يصعدون حفاة إلى أورشليم

وأسأل : هل من نبي جديد

لهذا الزمان الجديد ؟⁴

¹ محمود درويش : الديوان ، ص 451

² ينظر : عمر أحمد الربيعات : الأثر التوراتي في شعر محمود درويش ، ص 144

³ محمود درويش : المصدر السابق ، ص 381

⁴ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 595

فهم محمود درويش ، وهو يستحضر هذه الأساطير الدينية ، وغيرها ، هو التطلع إلى رؤيا يستشرف من خلالها واقعا غير واقع النكبة الذي يعيشه الفلسطيني . وفي جدارية محمود درويش ، لعبت الأسطورة دورا مهما في تشكيل الرؤيا فقد وضحها الشاعر لتتبنى معه الإجابة عن أسئلته ، وكذا تعميق رؤياه . وتأتي في إطار موضوع الصراع بين الحياة والموت ، الخلود والفناء .

ومن الأساطير التي وضحها الشاعر « ملحمة جلجامش » ، فقد شكلت جزءا واضحا من نص الجدارية ، وجلجامش رجل أمضى حياته في البحث عن الخلود ، وله صديق حميم اسمه أنكيبدو كان يرافقه في رحلاته ومغامراته لإيجاد ما يخلده غير أن أنكيبدو مات تاركا جلجامش وحده ، ليجد في النهاية عشبة سحرية تخذ كل من أكلها ، لكنه يصادف أفعى تأخذ العشبة منه . فيموت ولا يخلد .

فما العلاقة بين جلجامش الأسطورة والشاعر محمود درويش في جداريتيه ؟

يقول الشاعر :

ولم نزل نحي كأن الموت يخطئنا

فنحن القادرين على التذكر قادرون

على التحرر، سائرون على خطى

جلجامش الخضراء من زمن إلى زمن ...¹

فالشاعر يسير على خطى جلجامش باحثا عن الخلود ، ويبدأ في سرد

أحداث الملحمة ، يقول على لسان جلجامش الذي فقد صديقه أنكيبدو :

هباء كامل التكوين ...

يكسرني الغياب كجرة الماء الصغيرة

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 80

نام أنكيدو ولم ينهض¹

غير أن جلجامش يبقى متشبثاً بفكرة البحث عن الخلود رغم موت صديقه ،
فلا يستسلم للموت ، يقول مخاطباً أنكيدو بعد موته :

فانهض بي بكامل

طيشك البشري ، واحلم بالمساواة

القليلة بين آلهة السماء وبيننا . نحن

الذين نعمر الأرض الجميلة بين

دجلة والفرات ونحفظ الأسماء .²

ويستمر جلجامش في حث رفيقه على النهوض حتى يتمكن من الخلود ،
ويقهر الموت ، غير أن فكرة الخلود عند جلجامش الجدارية - محمود درويش -
تختلف عنها عند جلجامش الأسطورة :

وانتظر

ولدا سيحمل عنك روحك

فالخلود هو التنازل في الوجود

وكل شيء باطل أو زائل ، أو

زائل أو باطل³

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 81

² المصدر السابق ، ص 82

³ المصدر السابق ، ص 60

فإذا كان جلجامش في الأسطورة يدرك أن الخلود سيكون بعشبة سحرية يأكلها ، فإن جلجامش في الجدارية أدرك أن الخلود هو التنازل في الوجود ، وهذا ما أكده الشاعر من خلال حوارهِ مع السجنان ، يقول :

قلت للسجان عند الشاطئ الغربي :

هل أنت ابن سجاني القديم ؟

نعم

فأين أبوك؟

قال : أبي توفي من سنين

أصيب بالإحباط من سأم الحراسة

ثم أورتني مهمته ومهنته ، وأوصاني

بأن أحمي المدينة من نشيدك ...¹

فكان بإمكان الشاعر أن يقيم حوارهِ مع السجنان الأب ، دون أن يذكر أن له ابنا ، ودون أن يذكر أي تفاصيل عنه ، غير أن التركيز على كون السجنان الحالي ابن السجنان القديم هو تأكيد على المسألة التي طرحها الشاعر من خلال أسطورة جلجامش ، وما توصل إليه في أن الخلود هو التنازل في الوجود .

ومن الأساطير التي استحضرها الشاعر في " جداريتهِ " أسطورة «العنقاء» ، الطائر الذي إذا أدرك أنه أوشك على النهاية أحرق نفسه ليبعث من جديد ، يقول :

سأصير يوما طائرا ، و أسل من عدمي وجودي

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 64

كلما احترق الجناحان اقتربت من الحقيقة

وانبعثت من الرماد¹

وهنا يؤكد الشاعر على فكرة الخلود أيضا ، فالشاعر مثله مثل طائر العنقاء ، أي أن في موته بعثا جديدا للحياة .

ويؤكد على هذه الفكرة من خلال استحضاره لأسطورة البعث ، يقول :

ماذا يفعل التاريخ ، صنوك أو عدوك

بالطبيعة ، عندما تتزوج الأرض السماء

وتذرف المطر المقدس²

فبتزاوج الأرض والسماء ينزل المطر ، وهو رمز الخصب والنماء والشاعر يستحضر هذه الأسطورة لبعث الأمل في ميلاد حياة جديدة .

إن الشاعر بتوظيفه لهذه الأساطير أكسب نصه أبعادا فنية وجمالية ، كما أنها أسهمت في إبراز رؤياه ، ذلك أنها اجتمعت لتدل على فكرة واحدة ، وهي انتصار الخلود ضد الفناء ، هذا الخلود الذي لا يكون إلا بالتنازل في الوجود وهو المعنى الذي أراد الشاعر أن يصل به إلى أبعد مدى ، ففلسطين ستظل حياة خالدة بخلود شعبها ، الذي وإن مات فإن في موته حياة جديدة .

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 13

² المصدر السابق ، ص 63

2-الحلم :

جاء في لسان العرب ، الحلم و الحُلم : الرؤيا و الجمع أحلام و يقال : حلمَ ، يحلمُ إذا رأى في المنام ، و الرؤيا و الحُلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء ، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير و الشيء الحسن ، و غلب الحُلم على ما يراه من الشر و القبيح ، ويستعمل كل منهما موضع الآخر . و تضم لام الحلم و تسكن ¹ .

فالحلم رديف الرؤيا ، أو هو أساسها ، و منبع انبعاثها ، فهي تقوم على فعل روحي لا إرادي ، تشهد فيه القدرات التخيلية نشاطا هائلا ² .

و يدخل الحلم كآلية لها تأثير كبير في العمل الإبداعي ، فهو يفتح على طاقة تغذي العمل بعناصر لا تتضرب ، فهو حسب أرسطو " وظيفة للتخيل " ، ولعل الشعر من أكثر الفنون اتصالا بهذه الآلية ، ذلك أن " شكل العمل الشعري هو شكل حلمي من حيث تشابه قواعد العمل " ³ .

إن هروب شعراء الحداثة من الواقع و بحثهم عن الحرية جعلهم يلجؤون إلى الحلم باعتباره أداة لارتداد المطلق ، فهو يفكك الواقع إلى عناصره الأولية ، ويعيد تركيبه على نحو لا يخضع فيه إلى قوانين الواقع الخارجي بتجاوز معطياته و الالتحام بعوالم ميتافيزيقية ⁴ .

لقد ارتبط الحلم بالشعر بداية مع الرمزيين فكانت الإرهاصات الأولى مع إدجار ألان بو الذي أسس نظرية شعرية أولى فيها اهتماما بالنفس ، وهي عنده الجزء الخالد من الإنسان وهي التي تجعل الشاعر يفقد صلته بالعالم الظاهري ⁵ ، ثم امتد ذلك مع رمبو الذي رأى أن الفن الحق هو الذي يصدر من خلال "

¹ ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، م 2 ص 145

² ينظر : محمد كعوان : شعرية الرؤيا و أفقية التأويل ، اتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر ، ط1 ، 2003 ، ص 3

³ محمد صابر عبيد : مرايا التخيل الشعري ، ص 159

⁴ ينظر : بشير تاوريريت : إستراتيجية الشعرية و الرؤيا الشعرية عند أدونيس ، ص 63

⁵ ينظر : إحسان عباس : فن الشعر ، دار صادر - بيروت ، دار الشروق - عمان ، ط1 ، 1996 ، ص 55

الحلم العميق " ¹ ، فرمبو ينطلق من فكرة الحلم الذي يضرب بجذوره في هواجس و ذكريات الطفولة للسمو إلى ما فوق الواقع ² ، و امتد ذلك مع السرياليين الذين أولوا أهمية للحلم و اللاشعور ، فأصبح هم السريالي الغوص في أعماق الضباب الحلمى ليكتشف ما اختفى من كنوز ³ .

و حاولت البنيوية أن تطور مفهوم الحلم من خلال لا وعي المبدع وربطه بالمتلقي فالحلم " عندما يتحقق على صورة يكون رسالة ، لا يكتمل معناها إلا في التأويل حيث يتكون المعنى من خلال المرسل إليه الذي يعطي لهذه الرسالة معنى " ⁴ .

و في الشعر العربي المعاصر نجد توظيف الحلم إلى حد كبير ، و تعتبر نازك الملائكة من أكثر الرواد احتفاء به ، و تطويرا له في خطابها الشعري ⁵ ، فقصيدتها " الخيط المشدود في شجرة السرو " تنهض أساسا على قصة حلمية ، فنجد الحلم يشتغل على نحو واسع ، تقول :

و أنا نفسي أراك

من مكاني الداكن الساجي البعيد

و أرى الحلم السعيد

خلف عينيك يناديني كسيرا ⁶

و يجعل أدونيس الحلم قوة محرّكة للخيال الذي ينقل الشاعر من زمن البراءة الأولى إلى ما يمكن أن يكون عليه الزمن القادم ، يقول في قصيدته "قصائد لا تنتهي" :

¹ ينظر : إحسان عباس : المرجع السابق ، ص 60

² ينظر : بشير تاوريريت : رحيق الشعرية الحدائثية ، ص 80

³ ينظر : إحسان عباس : المرجع السابق ، ص 89

⁴ عبد العزيز إبراهيم : شعرية الحدائثية ، ص 88

⁵ ينظر : محمد صابر عبيد : مرايا التخيل الشعري ، ص 160

⁶ المرجع السابق ، ص 165

يا قصة تسير بي دربها

إلى فضاء الزمن الأول

ما أنت إلا حلم مبدع

للزمن المقبل

تهدر في صدر أسرارهِ

يبين في الذي لا يبين¹

و نجد الشاعر عصام ترشحاني يجعل من الحلم عنواناً لإحدى قصائده
"شرفة الحلم" ، و هذا دليل على أن الحلم هو محور للقصيدة . يقول :

تسلقت حلمي

طويلاً

قرأت

مرايا الدخان

بطيئاً

وضعت على السر نبضي

و كنت على شرفة النوم

تنتظرين جيادي البعيدة

تسلقت ما ينتاهي

فغابت ظلالك في الليل

¹ بشير تاويريريت : استراتيجيات الشعرية والرؤيا الشعرية ، ص 64

و الليل أففل

ما لا يسمى ...

فعدت إلى الحلم تنتظرين

و زهرة سهدك

من كان يلهث فوق القصيدة¹

و يشكل الحلم عنصرا أساسيا عند محمود درويش في تطوير قصائده و دفعها إلى آفاق مثيرة للدهشة و التأمل ، فهو الذي يجعل الشعر يفتح على وعي الشاعر بذاته و حقيقة وجوده و واقعه ، و لا انفصال بينه و بين الذاكرة ، فكلاهما يشكل الآخر ، بل إن هناك جدلا بينهما ، فالذاكرة تحافظ على واقعيتها ، وذلك بتسجيلها لما يحدث في الواقع الموضوعي العيني في حين يكفل الحلم تسجيل تفاصيل الواقع ، فيحافظ بذلك على خاصيته الرؤياوية ، فيصبح بذلك كل منهما دعامة من دعائم البنية الشعرية² .

و تحظى الذاكرة بأهمية قصوى في العمل الشعري ، فهي تؤسس لعلاقتها بالزمن أرضية فريدة ، تتحايل فيها على آليات الترتيب ، فهي تنطلق من قاعدة الماضي مرورا بالراهن ، و اتصالا بالمستقبل³ .

فقد تتم العودة إلى الزمن الماضي عن طريق الاسترجاع الذي تمثله الذاكرة أحسن تمثيل ، كما يتم اللجوء إليها هروبا من الراهن و مأسويته⁴ .

و تعد الذاكرة عنصرا مهما في تشكيل الرؤيا ، إذ تقوم الرؤيا على الخيال " والخيال نفسه إنما هو تمرين للذاكرة ، و بالتالي ثمرة من ثمراتها ، لا يمكن أن

¹ محمد صابر عبيد : مرايا التخيل الشعري ، ص 127

² ينظر : محمد لطفي اليوسفي : في بنية الشعر المعاصر ، ص 61

³ ينظر : محمد صابر عبيد : المرجع السابق ، ص 112

⁴ ينظر : محبة حاج معنوق : أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1994 ص 259

نتخيل شيئاً لم تسبق لنا معرفته ، فقدرتنا على التخيل هي القدرة على تذكر تجاربنا السابقة ، و تطبيقها على حالات جديدة " حسب ستيفن سبندر ¹ .

و لما كانت الذاكرة تعنى بتسجيل الواقع ، فإننا نجد هذا الملمح بارزاً في أعمال محمود درويش الأولى ، فهو يقول في قصيدة " بطاقة هوية " من ديوان (أوراق الزيتون : 1964) :

سجل !

أنا عربي

و رقم بطاقتي خمسون ألف

و أطفال ثمانية

و تاسعهم ...سيأتي بعد صيف !

فهل تغضب ! ²

و يحن الشاعر إلى ذكريات الماضي ، فيقول في قصيدته " إلى أمي " ، من ديوان (عاشق من فلسطين : 1966) :

أحن إلى خبز أمي

و قهوة أمي

و لمسة أمي ...

و تكبر في الطفولة

يوماً على صدر يوم

¹ محمد صابر عبيد : مرايا التخيل الشعري ، ص 113
² محمود درويش : الديوان ، ص 73

و أعشق عمري لأنني

إذا مت

أخجل من دمع أمي¹

كما يعود الشاعر بالذاكرة إلى الماضي البعيد ، و هو ما يعرف ب :
"الحاسة التاريخية " حسب إليوت ، الذي يرى أن الشاعر الحق ، لا يكفي أن يكتب
عن جيله فقط ، بل يجب عليه العودة إلى ماضي أمته ، فالحاضر الواعي ما هو إلا
وعي الماضي بطريقة تفوق إلى حد ما ، و عي الماضي لذاته² ، و هذا ما كتب عنه
محمود درويش في قصيدته " أهد الصبار " ، حيث نجد :

زمن حصار الفرنسيين ، يقول :

أقام جنود بونابرت تلا لرصد

الضلال على سور عكا القديم

زمن الإنجليز ، يقول :

يا بني تذكر ! هنا صلب الإنجليز

أباك على شوكة صبارة ليلتين

زمن الأتراك ، يقول :

يا بني تذكر : هنا وقع الانكشاري

عن بغلة الحرب ، فاصمد معي

لنعود

¹ محمود درويش : الديوان ، ص 98
² ينظر : علي جعفر العلق : في حداثة النص الشعري ، ص 35

زمن الاحتلال الإسرائيلي ، يقول :

كان جنود يهوشع بن نون بينون

قلعتهم من حجارة بيتهما

زمن المسيح :

هنا مر سيدنا ذات يوم ، هنا

جعل الماء خمرا ، وقال كلاما

كثيرا عن الحب

زمن الصليبيين ، يقول :

يا بني تذكر

غدا ، وتذكر قلاعاً صليبية

قضمتها حشائش نيسان بعد

رحيل الجنود ...¹

و نجد الذاكرة تأخذ حيزاً واسعاً في قصيدة " حبيبي تنهض من نومها

" (1970) ، يقول :

حبيبي تأخذ ، في كفها

زينتها من كل شيء

ولا ...

تنمو مع الريح سوى الذاكرة

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 298

و إنني أذكر مرآتها
 في أول الأيام ، حين اكتسى
 جبينها بالبرق ، لكنني
 أضطهد الذكرى ، لأن المسا
 يضطهد القلب على بابه¹

و لما كانت ذاكرة الشاعر في هذه القصيدة تنفتح على واقع حزين و
 مأساوي ، فإنه لا ينتظر غدا أفضل ، لذلك سرعان ما ينطفئ الحلم عنده ، و يأخذ
 طابعا كئيبا ، يقول :

حبيبتى

تحلم أن النهار

على رصيف الليلة الآتية

يشرب ظل الليل و الانكسار

من شرف الجندي و الزانية

تحلم أن المارد المستعار

من نومنا ، أكذوبة فانية

و أن زنرانتنا ، لا جدار

لها ، و أن الحلم طين و نار

كما يقول في مقطع آخر من القصيدة :

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 315

و جئت يا معبودتي

كل حلم

يسألني عن عودة الآلهة

ترى ! رأيت الشمس

في ذات يوم ؟

رأيتها ذابلة...تافهة

في عربات السبي كنا ، و لم

تمطر عينا الشمس إلا النعاس¹

غير أن الحلم يأخذ طابعا آخر ، إذ نجد الشاعر يتفاعل بغد أفضل ، يقول
في قصيدته " اعتذار " من ديوان (آخر الليل : 1967) :

حلمت بعرس الطفولة

بعينين واسعتين

حلمت بذات الجديدة

حلمت بزيتونة لا تباع

ببعض قروش قليلة

حلمت بأسوار تاريخك المستحيلة

حلمت برائحة اللوز

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 320

تشغل حزن الليالي الطويلة¹

و نجد الحلم يأخذ طابعا رؤياويا في قصائد محمود درويش ، و يتجلى ذلك بشكل بارز في قصيدته " أرى ما أريد" (1990)

أرى ما أريد من الحقل إني أرى

جدائل قمح تمشطها الريح ، أغمض عيني :

هذا السراب يؤدي إلى الناهوند

هذا السكون يؤدي إلى اللازورد²

فالرؤيا لا تتم إلا عندما يغمض الشاعر عينيه ، لذا فهي لا تتعلق بعملية الإبصار ، الشيء الذي يجعل للشاعر الحرية في رؤية ما يريد .

و ما يهيئ للرؤيا أيضا ، هو " تداخل الحواس و تجاذب معطياتها على النمط السريالي ، فما هو بصري يقود إلى المسموع وانعدام الحركة تتولد منه أنصع الألوان ، يأتي ذلك من علاقة السراب ، بأنغام النهوند ، وارتباط السكون بألوان اللازورد " ³ .

لقد شكل الحلم محورا مهما في كثير من قصائد محمود درويش ، حتى إننا لنجده في عناوين البعض منها مثل : جندي يحلم بالزنابق البيضاء ، بين حلمي و بين اسمه كان موتي بطيئا ، الحلم ، ما هو ؟ .

و على الرغم من تجلي الحلم بشكل بارز في شعر محمود درويش إلا أنه يكتسب طابعا تراجيديا ، فهو يكشف عن أزمة عدم إمكانية تحقيقه ، وضياع وتشتت مساراته ، تحت وطأة قهر و ظلم المستعمر ، ففي نهاية قصيدة الحلم ، ما هو ؟ من ديوان (لا تعتذر عما فعلت) يقول :

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 176
² صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة ، ص 238
³ المرجع السابق ، ص 238

فما هو السري هذا
 الحائر الحذر المحير
 حين أنتظر الزيارة مطمئن النفس
 يكسرني و يخرج مثل لؤلؤة
 تدرج ضوءها
 و يقول لي : لا تنتظرنني
 إن أردت زيارتي
 لا تنتظرنني !¹

و في قصيدة " بين حلمي و بين اسمه كان موتي بطيئاً " نلاحظ تكرار قول الشاعر : "يحمل الحلم سيفاً ، ويقتل شاعره حين يبلغه " ² ثلاثة مرات ، وهذا دليل على أن الشاعر على يقين بأن حلمه صعب التحقق بل قد يكون مستحيلاً ، وعياً منه بصعوبة الواقع و ما تمر به فلسطين من أحداث دامية في ظل الاحتلال الإسرائيلي .

ونجد الحلم يشكل ملمحاً مهماً من ملامح الرؤيا الشعرية في جدارية محمود درويش ، إذ تجاوز الشاعر الواقع المادي الملموس إلى واقع غيبي واقع الرؤيا والحلم ، يقول :

« هنا » بي يقفز
 من خطاي إلى مخيلتي ...
 أنا من كنت أو سأكون

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 84
² محمود درويش : الديوان ، ص 494 ، 497 ، 502

يصنعني ويصرعني الفضاء اللانهائي

المديد¹

ويهيئ الشاعر المتلقي للدخول إلى عالم الحلم ، وذلك بعد حقه
بالمخدر ، يقول :

تقول ممرضتي : أنت أحسن حالا

وتحقتني بالمخدر : كن هادئا

وجديرا بما سوف تحلم

عما قليل ...²

ثم يشرع في عرض ما رآه في حلمه :

رأيت طبيبي الفرنسي

يفتح زنزانتي

ويضربني بالعصا

يعاونه اثنان من شرطة الضاحية

رأيت أبي عائدا

من الحج ، مغمى عليه

مصابا بضربة شمس حجازية

يقول لرف ملائكة حوله :

أطفئوني ! ...

رأيت شبابا مغاربة

يلعبون الكرة

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 14

² المصدر السابق ، ص 29

ويرمونني بالحجارة : عد بالعبرة

واترك لنا أمنا

يا أبانا الذي أخطأ المقبرة !

رأيت « ريني شار »

يجلس مع « هيدغر »

على بعد مترين مني

رأيتهما يشربان النبيذ

ولا يبحثان عن الشعر

كان الحوار شعاعا

وكان غد عابر ينتظر

رأيت رفاقي الثلاثة ينتحبون

وهم يخيطون لي كفنا

بخيوط الذهب

رأيت المعري يطرد نقاده

من قصيدته

لست أعمى

لأبصر ما تبصرون

فإن البصيرة نور يؤدي

إلى عدم ... أو جنون¹

على الرغم من خروج الشاعر من الواقع ودخوله عالم الحلم ، إلا أننا نجده يستحضر أشياء من مخزونه الفكري والثقافي والاجتماعي ويبدو متشائما ، فهو يرى طبيبه يضربه ولا يعالجه ، فالطبيب فرنسي لا يبالي بصحته ، ولعل الشاعر أراد أن يشير به إلى الآخر الذي يريد السيطرة على العربي ، أما والده فمغمى عليه ،

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 29 ، 30 ، 31 ، 32

والأب في الغالب يرمز إلى الموروثات و الهوية ، فأغماؤه دليل على سقوط الهوية العربية والقيم والموروثات ، خاصة وأن الشاعر يحمل الأب بقيمة دينية ، وهي أنه عائد من الحج ، أما الشباب فإن الشاعر يراهم وهم لا يباليون بشيء ذلك أنهم مشتغلون بلعب الكرة ، ولا يباليون بلغتهم « عد بالعبارة » ، ويرى في حلمه أعلاما من الأدبين العربي والغربي ، فيرى ريني شار و هيدغر ، وهما هذه المرة لا يبحثان عن الشعر إنما يشربان النبيذ ، كذلك المعري ، فهو يرفض النقد ويطردهم عن قصيدته ، أما رفاقه ، فهم ينتحبون ويخيطون له الكفن .

هذه الأحلام كلها مطبوعة بطابع تشاؤمي ، وهي توحى بالفوضى واللااستقرار في عالم الشاعر الحلمى غير أن ذلك لا يستمر فيأخذ الحلم طابعا آخر ، يقول :

رأيت بلادا تعانقني

بأيد صباحية : كن

جديرا برائحة الخبر ، كن

لأنقا بزهور الرصيف

فمازال تنور أمك

مشتعلا ،

والتحية ساخنة كالرغيف !¹

وهنا ينفتح الحلم على رؤيا الشاعر ، فإن كان عالمه قد تميز من قبل بالتشاؤم وعدم الثبات ، فإنه الآن يتميز بالتفاؤل ، إذ يجمع بين وطنه وأمه ، فوطنه يعانقه بأيد صباحية ، والصباح هنا دليل على بداية حياة جديدة ، ويجمع بين القمح : " رائحة الخبز " والورود : " بداية زهور الرصيف " ، فالقمح يدل على حاجة نفعية

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 32

والزهور تدل على قيمة جمالية ، والشاعر إن كان قد فضل القمح على الورد سابقا * فهو الآن يجمع بينهما ، فبلاده الآن لا تريد ما يلبي حاجتها النفعية فحسب إنما تريد ما يضيف عليها جمالا أيضا .

فالشاعر لا يريد الاستمرار في التشاؤم و اللااستقرار إنما يريد التغيير ويتطلع إلى حياة جديدة ، لذلك فهو يصر على الحلم :

سأحلم ، لا لأصلح مركبات الريح

أو عطبا أصاب الروح

فالأسطورة اتخذت مكانتها / المكيدة

في سياق الواقعي. وليس في وسع القصيدة

أن تغير ماضيا يمضي ولا يمضي

وأن توقف الزلزال

لكني سأحلم ،

ربما اتسعت بلاد لي ، كما أنا

واحدا من أهل هذا البحر¹

ويستمر الشاعر في إصراره على الحلم لذلك نجده يكرر " لكني سأحلم " في العديد من المقاطع ، وهو لا يريد أن يحلم بغرض الحلم فحسب والهروب من الواقع ، إنما يريد أن تتحول أحلامه إلى واقع ، فيحل محل الواقع الكائن ، لذلك لابد من قوة ما ، يقول :

لا بد لي من

* ورد بيان ذلك في الفصل الأول ص62
¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 73

قوة ليكون حلمي واقعيًا¹

فالشاعر و إن كان فاقده الوعي ، فإن هم بلاده يشغله دائما لذلك اتخذ من
الحلم وسيلة للرؤيا التي تتطلع إلى التجاوز والتغيير ، لذلك فهو يسعى دائما إلى
تحويل ذلك الحلم إلى واقع .

¹ محمود درويش : الجدارية ، ص 81

3- الكشف :

تطلق القصيدة الحدائية من كونها قفزة خارج المفاهيم السائدة فهي تتجاوز الواقع ، والمتعارف عليه إلى المجهول ، ومن ثم كانت قصيدة كشف .

ومفهوم الكشف عند شعراء الحدائة ونقادها ، قريب من مفهومه عند المتصوفة ، فهو « نظرة تخترق الواقع إلى ما وراءه ، وهو ما يسميه ابن عربي " علم النظرة " وهو ما يخطر في النفس كلمح البصر»¹ .

فالكشف هو تجاوز الشعر لتراث الواقع ، وتجاوزه " الشعر الذي يزوق ، شعر الفسيفساء والترصيع ، إلى الشعر الذي يغير ، شعر الثورة والحركة ، شعر الواقع الشامل ، شعر الكشف والرؤيا " ² .

والقصيدة الحدائية هي التي تتجاوز اللحظة الآنية لاكتشاف ما لم يكتشف بعد ، فهي تعبير عن الشعور بطريقة عفوية بمعزل عن مراقبة الوعي ، والشاعر الحدائي لا يسعى إلى تفسير الأشياء بقدر ما يسعى إلى اكتشاف عوالم المجهول ، يقول أدونيس :

أحس المغيب ينبت قربي

خطايا اكتشاف

وسيري أبعد من كل درب³

ومن هنا فإن الشاعر الحدائي ينفذ برؤاه إلى ما وراء العالم ليخلق أبعاداً فنية وإنسانية جديدة فيسير في اتجاه المستقبل باحثاً عن الممكن اللانهائي ، فهو في حاجة دائمة للكشف عن هذا العالم .

¹ محمد كعوان : شعرية الرؤيا وأفقية التأويل، ص 5

² علي جعفر العلق : في حدائة النص الشعري ، ص 24

³ بشير تاويريريت : استراتيجيات الشعرية والرؤيا الشعرية ، ص 198

والكشف في القصيدة الحدائرية ليس للعالم فحسب ، إنما للذات أيضا ، إذ تتحول إلى صورة من صور العالم المجهول وتتوحد معه ¹ ، وهو ما انطلق منه الشاعر محمود درويش في جداريتة التي تجاوزت من خلالها عالمه وواقعه ليكشف عن عالم جديد لا سيطرة فيه إلا للذات التي تبحث عن الحقيقة المطلقة ، في تعاليها المستمر ، يقول :

كلما احترق الجناحان

اقتربت من الحقيقة ، وانبعثت من

الرماد . أنا حوار الحالمين ، عزفت

عن جسدي وعن نفسي لأكمل

رحلتي الأولى إلى المعنى ، فأحرقني

وغاب . أنا الغياب . أنا السماوي

الطريد ²

والذات في شعر الحدائرية قادرة على التغيير ، لذلك لابد أن تكون الإرادة قوية ، فالإنسان الحدائي « قادر على تغيير نفسه والعالم معا ، قادر على صنع التاريخ » ³ . وهو ما أكده محمود درويش في جداريتة ، إذ نجد قوله :

سأصير يوما ما أريد ⁴

ويتكرر هذا الشطر في العديد من مقاطع الجدارية ، وهو دليل على قدرته في التغيير ، وتعظيم للذات في عالمها الآخر .

¹ ينظر : بشير تاويريريت : استراتيجية الشعرية والرؤيا الشعرية عند أدونيس ، ص 164

² محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 13

³ بشير تاويريريت : استراتيجية الشعرية والرؤيا الشعرية عند أدونيس ، ص 169

⁴ محمود درويش ، المصدر السابق ، ص 12

وما دام الشاعر الحدائي يتجاوز الواقع المادي فلا بد أنه سيتجاوز قوانين العقل والمنطق ويفلت من حدود الزمان والمكان ، يقول الشاعر:

لا شيء يوجعني على باب القيامة .

لا الزمان و لا العواطف . لا

أحس بخفة الأشياء أو ثقل

الهباجس . لم أجد أحدا لأسأل :

أين « أيني » الآن ؟ أين مدينة

الموتى ، وأين أنا ؟ فلا عدم

هنا في اللاهنا ... في اللازمان

ولا وجود¹

والشاعر محمود درويش في جداريتته متأثر بالفكر الصوفي ، يسعى إلى الكشف عن أسرار الكون ومعرفة الله ، يقول :

لم أولد لأعرف أنني سأموت ، بل لأحب محتويات ظل

الله

ياخذني الجمال إلى الجميل

وأحب حبك ، هكذا متحررا من ذاته وصفاته²

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 10

² المصدر السابق ، ص 36

ونص الجدارية يحمل خصوصيات صوفية ، فنجد الشاعر يستعمل اللغة ليرتقي بها لا ليصف أحواله ، فلغته لغة صوفية لا تقف عند حدود الوصف بل تتعدى ذلك إلى الكشف والتعبير ، يقول :

يا موتنا ! خذنا إليك على طريقتنا ، فقد نتعلم الإشراق...

لا شمس ولا قمر علي

تركت ظلي عالقا بغصون عوسجة

خفف بي المكان

وطار بي روعي الشرود¹

والشاعر يتوحد بالصوفي الذي لا يرى ما هو مرئي بالعين إنما يشاهد المعارف و الأسرار والصور بعين القلب ، فهو محكوم بالرؤيا ، وهي كشف يفضح به حاجز الغيب ، يقول :

فأنا و أنت على طريق

الله صوفيان محكومان بالرؤيا ولا يريان²

فمحمود درويش في جداريته تجاوز الرؤية إلى الرؤيا ليستشف ما وراء الواقع ويكشف عما هو خفي مجهول فكانت قصيدته تنبئية ، والنبوءة ملمح من الملامح التي شكلت الرؤيا في جدارية محمود درويش .

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 47

² المصدر السابق ، ص 61

4- النبوءة :

ما دام الشعر الحدائي شعر كشف يتجاوز الواقع والآني ، فلا بد أنه يستشرف المستقبل ، ويتطلع إليه ، فعنصر المستقبل دائم الحضور في الرؤيا ، ومن هنا جاء الارتباط بين الرؤيا والنبوءة ¹ .

فالنبوءة تعني بقراءة الغيب وكشف الغامض ، لذلك فهي مرتبطة بالمستقبل ، والشعر قائم على شهوة الدخول في الغيب والمجهول ، وهذا ما جعل الكثير من الشعراء العرب وبعض الغربيين أمثال شيللي يذهبون إلى أن الشعر إلهام من قوة غيبية ، وأن الشاعر نبي يوحى إليه من السماء ، متجاهلين تفكير الشاعر ومعاناته في كثير من الأحيان ² .

ولعل الشيء الذي جعل الكثير من الشعراء والنقاد يربطون بين الشاعر والنبي ، هو أن مهمة كل منهما التغيير و إحداث ثورة ضد الفساد ، وهو ما تبناه العديد من الشعراء العرب ، ومحمود درويش واحد من هؤلاء ، فقد ربط بين مهمته كشاعر وبين مهمة النبي في الكثير من أعماله ، فهو القائل في قصيدة " عن الشعر " من ديوان (أوراق الزيتون) :

يا رفاقي الشعراء !

نحن في دنيا جديدة

مات ما فات ، فمن يكتب قصيدة

في زمان الريح والذرة

يخلق أنبياء ! ³

¹ وهم الحدائث ، ص 150

² ينظر : فاتح علاق : مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر ، ص 40

³ محمود درويش : الديوان ، ص 55

ويقول في قصيدة " أرى شبحي قادما من بعيد " من ديوان (لماذا تركت الحصان وحيدا) :

أطل على موكب الأنبياء القدامى

وهم يصعدون حفاة إلى أورشليم

وأسأل : هل من نبي جديد

لهذا الزمان الجديد ؟¹

وفي جداريتة يواصل ربط مهمته بمهمة النبي ، يقول :

سأصير يوما ما أريد

سأصير يوما كرمة

فليعتصرني الصيف منذ الآن

وليشرب نبيذي العابرون على

ثريات المكان السكري

أنا الرسالة و الرسول²

ويقول :

خضراء أرض قصيدتي خضراء

ولي منها التشابه في كلام الأنبياء³

¹ محمود درويش : الأعمال الجديدة ، ص 595

² محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 14

³ المصدر السابق ، ص 41

إلا أنه سرعان ما يلغي هذا الارتباط ، ويتبرأ من كونه يسعى إلى أن يقوم
بما قام به الأنبياء ، يقول :

لست أنا النبي لأدعي وحيًا

وأعلن أن هاويتي صعود¹

و يقول :

كنا طبيبين وزاهدين بلا تعاليم المسيح²

كما يقول :

كنا طبيعيين لو كانت نجوم سمائنا أعلى قليلا من

حجارة بئرننا ، والأنبياء أقل إلحاحا ، فلم يسمع مدائحنا

الجنود ...³

فنص الجدارية يحفل بازدواجية من ناحية علاقة الشاعر بالنبي ، فهي علاقة
اتصال ، وكذا انفصال ، إلا أن علاقة الاتصال هي البارزة ، وذلك من خلال العديد
من الإشارات في النص ، كقول الشاعر :

فلنذهب إلى أعلى الجداريات :

أرض قصيدي خضراء ، عالية

كلام الله عند الفجر أرض قصيدي

وأنا البعيد أنا البعيد⁴

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 22

² المصدر السابق ، ص 39

³ المصدر السابق ، ص 40

⁴ المصدر السابق ، ص 17

فأرض قصيدته كلام الله عند الفجر ، فكأنما هو نبي يوحى إليه ما يقوله من أشعار والفجر هنا دلالة على بداية الحياة والخروج من ظلمة الليل .

ويستحضر الشاعر في نصه نزول الوحي على سيدنا محمد (ص) بطريقة غير مباشرة ، إذ يقول :

أنا من تقول له الحروف الغامضات :

اكتب تكن !

واقراً تجد !¹

فأول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : " اقرأ " ، وهي دعوة من الله تعالى لرسوله كي يتعلم فيخرج أمته من الضلال ، كذلك الشاعر جعل همه الكتابة والقراءة كي يثبت هويته وهوية شعبه ويخرجه مما هو عليه .

ويشير الشاعر إلى سيدنا نوح وقصة الطوفان ، يقول :

وأريد أن أحيأ ...

فلي عمل على ظهر السفينة . لا

لا لأنقذ طائراً من جوعنا أو من

دوار البحر ، بل لأشاهد الطوفان

عن كئيب : وماذا بعد ؟ ماذا

يفعل الناجون بالأرض العتيقة ؟

هل يعيدون الحكاية ؟ ما البداية ؟

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 25

ما النهاية ؟¹

فالشاعر يريد أن يحي ليشاهد الطوفان ، فلعل الطوفان الذي أهلك قوم نوح العاصين ، سيهلك من احتل أرضه ، فلا يبقى فيها غير الناجين من شعبه .

ويشير أيضا إلى صبر أيوب ، حيث يخاطب الموت قائلا :

ربما

أبطأت في تدريب أيوب على

الصبر الطويل²

فالشاعر لا يريد أن يكون نبيا إلا ليغير ويتنبأ بما هو آت ويلج الغيب والمجهول :

علي أن ألج الغياب

وأن أصدق أولا قلبي وأتبعه إلى

قانا الجليل³

¹ محمود درويش : جدارية محمود درويش ، ص 48

² المصدر السابق ، ص 61

³ المصدر السابق ، ص 43